أصوات المدّ وأثرها في تحديد الصيغ الصرفية للغة العربية

أ/مصطفى مديوني
جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة
طالب دكتوراه بالمدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة

الملخص:

تعتبر الأصوات المادة الخام لأية لغة من اللغات البشرية، ومنها اللغة العربية وتنقسم هذه الأصوات في اللغات جميعها إلى قسمين؛ صوامت وصوائت، إلا أن الصوائت على الرغم من قلتها يشيع استخدامها ودورانها على ألسنة الناطقين وبخاصة في اللغة العربية؛ إذ تؤدي وظائف لغوية متعددة ومهمة، وأهمها الوظيفة الصرفية، وإذا كانت الصوائت في العربية صنفان؛ قصيرة (الفتحة والضمة والكسرة) وطويلة (الألف والواو والياء) فإن للثانية منها؛ أي أصوات المدّ الحظ الأكبر من حيث هذه الأهمية وكذا الوظيفة الصرفية، حيث نجد لها أثرا واضحا في تحصيل مختلف الصيغ الصرفية والظواهر اللغوية مما يؤدي إلى إثراء اللغة العربية وتحقيق مختلف المعاني المعجمية والدلالات اللغوية.

Abstract :

The sounds are the raw material of any human language, including the Arabic language. These voices are divided in all languages - in general - into two parts; silos and poisons; - although some advanced Arab scholars (Ibn Jinni) referred to a third section of what the modernists called semi-voils. However, the sounds, although rare, are commonly used and spoken on the tongue, especially in the Arabic language. The most important of these is the morphological function, and if the two languages are short, the short, the short and the long and the short, the second one is the sounds of the greatest luck in terms of this importance and the morphological function, And linguistic phenomena Thus enriching the Arabic language and achieving different meanings of lexicography and linguistic connotations.

تمهيد

إن لأصوات المد أثرا قويا في اللغة العربية ودوراً بارزاً في كل مستوياتها وجوانبها الإفرادية والتركيبية والدلالية، إذ تؤدي وظائف صرفية ونحوية، ودلالية عديدة ومهمة في آن واحد، وما يعنينا في هذا الموضوع هو أثر هذه الأصوات في الجانب الصرفي أو بالأحرى في تحديد الصيغ الصرفية المختلفة للغة العربية.

الأصوات المدّيّة: أصوات المد ثلاثة، هي الألف والياء والواو، وقد أشار إلى ذلك كثير من مؤسسي الدرس الصوتي العربي، وأهمهم ابن جني معتبرا أن هذه الأصوات

المنارة للاستشارات

تتنشّأ عن الحركات في حال إشباعها، إذ هي (الحركات) أبعاض لهذه الأصوات وأوائل لها، يقول في ذلك: "اعلم أن الحركات أبعاض حروف المدّ واللّين، وهي الألف والياء والواو، فكما أنّ هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث، وهي الفتحة، والكسرة، والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو"[1]. ويرى أن تسمية هاته الحركات حروفا صغيرة صائبة، حيث يقول: "وقد كان متقدّمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والضمة الواو الصغيرة، وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة؛ ألا ترى أن الألف والياء والواو اللواتي هن حروف توامّ كوامل، قد تجدهن في بعض الأحوال أطول وأتمّ منهنّ في بعض، وذلك قولك يخاف وينام، ويسير ويطير، ويقوم ويسوم، فتجد فيهن امتداداً واستطالة ما، فإذا أوقعت بعدهن الهمزة أو الحرف المدغم، ازددن طولا وامتدادا. وذلك نحو يشاء ويداء ويسوء ويجيء ويفيء. وتقول مع الإدغام شابّة ودابّة... أفلا ترى إلى زيادة المدّ فيهنّ بوقوع الهمزة والمدغم بعدهنّ، وهنّ في كلا موضعيهنّ يسمّين حروفا كوامل، فإذا جاز ذلك فليست تسمية الحركات حروفا صغارا بأبعد في القياس منه".[2]

ويستدل ابن جني على أن الحركات أبعاض لأصوات المدّ بقوله: "ويدلّك على أن الحركات أبعاض لهذه الحروف، أنك متى أشبعت واحدة منهنّ حدث بعدها الحرف الذي هي بعضه، وذلك نحو فتحة عين عَمر، فإنك إن أشبعتها حدثت بعدها ألف، فقلت عامر، وكذلك كسرة عين عِنَب، إن أشبعتها نشأت بعدها ياء ساكنة، وذلك قولك عينب، وكذلك ضمة عين عُمَر، لو أشبعتها لأنشأت بعدها واوا ساكنة، وذلك قولك عومر فلولا أن الحركات أبعاض لهذه الحروف وأوائل لها، لما تنشأّت عنها، ولا كانت تابعة لها".[3]

وأصوات المدّ رغم أهميتها البالغة وكثرة شيوعها في اللغة، لم تلق اهتماما كبيرا من قبل علماء العربية الأقدمين، وقد أشار إلى ذلك إبراهيم أنيس بقوله: "أصوات اللين { ويقصد الأصوات المدية } مع أنها عنصر رئيسي في اللغات ومع أنها أكثر شيوعا فيها، لم يعن بها المتقدمون من علماء العربية، فقد كانت الإشارة إليها دائما سطحية، لا على أنها من بنية الكلمات، بل كعرض يعرض لها، ولا يكون منها إلا شطرا فرعيا. ولعل الذي دعا إلى هذا أن الكتابة العربية منذ القدم، عنيت فقط بالأصوات الساكنة فرمزت لها برموز. ثم جاء عهد عليها أحس الكتاب فيه بأهمية أصوات اللين الطويلة، كالواو والياء الممدودتين، فكتبوها في بعض النقوش والنصوص القديمة وظلت الحال هكذا حتى

المنارة للاستشارات

وضعت أصوات اللين القصيرة التي اصطلح القدماء على تسميتها بالحركات في العصور الإسلامية".[4]

ومن خلال قول ابن جني السابق يمكن القول إن بعض القدماء قد أحسّ كما يحسّ المحدثون بأن الفرق بين الفتحة وألف المدّ لا يعدو أن يكون فرقاً في الكمية، وكذلك الفرق بين ياء المد وواو المد إذ قورنتا على الترتيب بالكسرة والضمة، ليس إلا فرقا في الكمية، فما يسمى بألف المد هو في الحقيقة فتحة طويلة، وما يسمى بياء المد ليس إلا كسرة طويلة، وكذلك واو المد تعد من الناحية الصوتية ضمة طويلة، فكيفية النطق بالفتحة وموضع اللسان معها يماثل كل المماثلة كيفية النطق بما يسمى ألف المد، مع ملاحظة فرق الكمية بينهما.[5]

مخارج أصوات المد وصفاتها

ولعل في تحديد ابن سينا لمخارج هذه الأصوات أي الأصوات المدّيّة -والتي سماها المصوّتة- في رسالة "أسباب حدوث الحروف" إشارة واضحة إلى أنها امتداد للحركات وتابعة لها: أي هي ناتجة عن إشباعها وإطالتها بدليل اعتبارها أخوات لها وإدراجها معها في مخرج واحد، يقول: "وأمّا الألف المصوّتة وأختها الفتحة فأظن أن مخرجهما مع إطلاق الهواء سلسا غير مزاحم. وأمّا الواو المصوّتة وأختها الضمة فأظن أن مخرجهما مع إطلاق الهواء مع أدنى تضييق للمخرج وميل به سلس إلى فوق. وأمّا الياء المصوّتة وأختها الكسرة فأظن أن مخرجهما مع إطلاق الهواء مع أدنى تضييق وميل به سلس إلى أسفل".[6]

ورغم أن ابن سينا يقرّ بأن أمر هذه الأصوات مشكل عليه، إلا أنه متأكد من أنها أضعاف للحركات القصيرة، أي الألف والضمة والكسرة، إذ يقول: "ثمّ أمر هذه الثلاثة عليّ مشكل، ولكني أعلم يقينا أن الألف الممدودة المصوّتة تقع في ضعف أو أضعاف زمان الفتحة وأن الفتحة تقع في أصغر الأزمنة التي يصح فيها الانتقال من حرف إلى حرف. وكذلك نسبة الواو المصوّتة إلى الضمة، والياء المصوّتة إلى الكسرة".[7]

تتميز أصوات المدّ باتساع مخرجها لمرور الهواء عند النطق بها وهذه الصفة تنماز بها جميع الحركات من سائر الأصوات؛ أي تنفرد بها الصوائت الطويلة (أصوات المدّ) والصوائت القصيرة (الحركات) دون الأصوات الصامتة أو الساكنة، كما أن الأصوات المدية يلزمها المدّ والمطل في كل حالة، وهي سمة تتميز بها عن سائر الأصوات بما في ذلك

المنارة للاستشارات

الحركات القصيرة[8]. كما تتميز هذه الأصوات بطبيعتها المصوتة أو الرنّانة خلاف السواكن[9]. وهي من الأصوات المجهورة؛ أي أن الجهر من صفاتها المميزة لها.[10]

وكذلك تتميز أصوات المد بشدّة وضوحها وقوة إسماعها إذا قيست بالأصوات الساكنة.[11]

ومن خصائص أصوات المد أيضا كثرة ورودها في كل كلام وشيوعها فيه.[12]

وعلى العموم تتصف أصوات المد بكثرة التداول والاستخدام في كل اللغات كما تمتاز بدقة النطق بها مما لا يسمح بأي انحراف في تأديتها وإلا كانت نابية في الأذن .[13]

نظرة الصرفيين إلى الواو والألف والياء

حدث خلط ما في رؤية حروف العلة "الواو والألف والياء" عند الصرفيين القدماء أساسه اختلاف مسارات الواو والياء فمن خصها بالعلة ظل الطريق لأن استخدمهما يثبت غير ذلك، فقد يستخدمان صوتي مدّ أي حركتين طويلتين. وقد يستخدمان صوتين صحيحين، وهنا ينبغي الحذر لأن الفارق بين الحالتين شاسع، فالواو في كلمة "وَلد" مثلا لا تتصل عن قريب بالواو في كلمة "يدعو". فالأولى من قبيل الأصوات الصحيحة التي تتحمل حركة كالباء والكاف واللام، والثانية صوت مدّ لا يحمل حركة بذاته، فكيف تحمل الحركة حركة؟!.[14]

القيمة الصرفية للأصوات المدّيّة في اللغة العربية

إن لأصوات المد أثرا واضحا في الجانب الصرفي للغة العربية، إذ كثيرا ما نجدها حاضرة في بُناها (بنياتها) الإفرادية لتأدية وظائف صرفية متعددة ومختلفة، ومن ذلك التحول من صيغة الفعل إلى صيغة اسم الفاعل أو صيغة المبالغة لهذا الاسم أو صيغة المفعول نحو: شَهِدَ– شاهِدٌ– شَهّادٌ – شَهيدٌ– مَشْهودٌ- على وزن فَعِلَ – فاعِلٌ – فَعّالٌ – فَعيلٌ- مَفْعولٌ. وبيان ذلك أن لهذه الأصوات أثرا في تغيير الصيغ الصرفية، في مثل (فعل وفاعل ومفعول وفعيل)، فدخول (الألف والواو والياء)، بين فاء (فعل) وعينها ولامها، يحدث تغييرا صرفيا أو فونولوجيا (phonologie)، حيث يؤدي إدخال الألف بين الفاء والعين، إلى تكوين اسم الفاعل، وإدخال الواو بين العين واللام يؤدي إلى تكوين صيغة اسم المفعول، أما إدخال الياء بين العين واللام، فيؤدي إلى تكوين صيغة مبالغة اسم الفاعل، مما يسهم في إثراء معجم اللغة العربية، وتكثير صيغها بعدد قليل من المفردات[15].

كما أن للأصوات المدية دورا رئيسا في تحويل البنى الصرفية من صيغة الإفراد إلى صيغة التشبيه نحو: "مسلم- مسلمان" و"طالب- طالبان" و"مسلمة- مسلمتان" و"طالبة-

المنارة للاستشارات

طالبتان " وكذلك صيغة الجمع بمختلف أنواعه أي جمع المذكر السالم نحو: "مؤمن- مؤمنون"، وجمع المؤنث السالم مثل: "فاطمة- فاطمات"، وجمع التكسير، حيث إن كثيرا من صيغه تحصل من خلال تغيير الاسم تغييرا داخليا بإضافة صوت مدي أو بالأحرى إدخال صوت مدي في صيغة المفرد كجمع عطر على عطور، ومكتب على مكاتب، ونحو ذلك.[16]

وشيوع الأصوات المدية في الصيغ الصرفية للغة العربية متفشٍّ جدا، ولا يمكن إنكاره إلا من قبل ذي نظر قاصر، وإلا فهي حاضرة في كل جمع، وكل تثنية، وكل تأنيث، وكذا في كل إضافة وكل تصغير، وكل نسبة وقد ذكر سيبويه ذلك مشيرا إلى أهميتها وكثرة استخدامها ووظائفها الصرفية المختلفة حيث يقول: " فأما الأحرف الثلاثة يقصد (أصوات المد)، فإنهن يكثرن في كل موضع ولا يخلو منهن حرف (يعني كلمة) أو من بعضهن، ثم ليس شيء من الزوائد (الصوائت القصيرة) يعدل كثرتهن في الكلام، هن لكل مد ومنهن كل حركة، وهن في كل جميع (أي جمع)، وبالياء الإضافة، والتصغير وبالألف التأنيث، وكثرتهن في الكلام وتمكنهن فيه زوائد أفشى من أن يحصى ويدرك فلما كن أخوات وتقاربن هذا التقارب، أجرين مجرى واحدا".[17]

ولا تنحصر أهمية الأصوات المدية فيما ذكرناه من مشتقات لغوية وصيغ صرفية، كما لا يقتصر حضورها على ذلك، بل هناك ظواهر صرفية وقضايا لغوية أخرى ترتبط بها وتكون عاملا مهما في تحقيقها ومنها: القصر والمد، أو بعبارة أوضح: الأسماء الممدودة، نحو: موسى وعيسى ومصطفى وطوبى (أسماء مقصورة)، وسماء وفضاء وشتاء وصحراء (أسماء ممدودة)، بالإضافة إلى الأسماء المنقوصة، مثل: القاضي والداعي والراعي[18]،ولا ننسى في هذا الصدد ذكر الأفعال المعتلة، إذ إن كثيرا منها معتلّ بسبب وجود صوت من أصوات المد في بنيته، كَدَعا يَدْعو، وسارَ يَسيرُ، وقامَ يَقومُ، والأفعال الجوفية بصفة عامة يتوسط بنيتها أو صيغتها صوت من أصوات المد، نحو: باعَ وقالَ.

والفعل "الأجوف ما عينه ياء، فيَفْعِلُ نحو: يسير، أو واو، فيَفْعُلُ نحو: يقومُ"[19].

والحديث عن الأفعال المعتلة الوسط (الأفعال الجوفية) يسوقنا إلى طرق باب ظاهرة من الظواهر الصرفية أو قضية من القضايا الصرفية التي تقوم على أساس الأصوات المدية السالفة الذكر ألا وهي قضية الإعلال.

والإعلال في الاصطلاح هو قلب حرف العلة أو حذفه أو تسكينه.

المنارة للاستشارات

والإعلال بالقلب نحو: قال والأصل قول، وباع والأصل بَيَعَ والإعلال بالحذف، مثل: قُمْ والأصل قُوْمْ وخَفْ والأصل خَافْ وادْعُ والأصل وادْعُو، ولم يَرْمِ والأصل يَرْمِي، ويرث والأصل يورث. والإعلال بالإسكان كيمشي والأصل يَمْشِيُ، والقاضي والأصل: القاضِيُ.[20]

وما يهمنا أكثر في هذا السياق هو النوع الأول، أي الإعلال بالقلب باعتبار أنه يقوم على أساس التبادل بين أصوات المد، فتبدل الواو بالألف، كما تبدل الياء بالألف أيضا، وتبدل الواو بالياء، وتقلب الياء واواً، وتقلب الألف ياء، إلا أن الإبدال يقع بين الألف والياء أكثر منه بين الألف والواو، وذلك لأن الياء أقرب إلى الألف من الواو، وتعامل الياء مع الواو أكثر من تعامل الواو مع الألف، وفي ذلك يقول سيبويه: "وذلك لأن الياء والواو بمنزلة التي تدانت مخارجها لكثرة استعمالهم إياهما وممرهما على ألسنتهم، فلما كانت الواو ليس بينها وبين الياء حاجز بعد الياء ولا قبلها، كان العمل من وجه واحد ورفع اللسان من موضع أخف عليهم، لشبهها بالألف، وذلك قولك في "فيْعِل": "سيد" و"صيّب"، وإنما أصلهما "سَيْوِد" و"صَيْوِب"".[21]

وهناك ظاهرة لغوية وخاصة من خصائص اللغة العربية وهي ظاهرة الاشتقاق، وهي قضية من القضايا التي يُطرق بابها في المجال الصرفي بإلحاح واهتمام بالغين باعتبارها من أهم الوسائل التي تستند إليها اللغة العربية في تكوين الصيغ الصرفية المختلفة لتحقيق معان متعددة ودلالات معجمية مختلفة، وكثيرا ما تقوم عملية الاشتقاق اللغوية -أي توليد الألفاظ والصيغ التعبيرية الإفرادية في قوالب وصيغ صرفية مضبوطة لأجل معان محددة- على صوت من الأصوات المدية الثلاثة أي الألف أو الواو أو الياء وذلك في مثل: سَرِعَ وسارَع واحمرَّ واحْمِرار. أو أَحْمَر واحمرارٌ، وكَسَل وكَسول وعجِبَ وعجيب وعُجاب.

وما يلاحظ في هذا الموضع، أن اللغة العربية تمتاز بحصول أغلب حالات الاشتقاق، بواسطة تغيير الصوائت ومنها الأصوات المدية بهدف تحقيق البناء الصرفي المطلوب.[22]

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن اللغة العربية كغيرها من اللغات الإنسانية تقوم على نظام "مقطعي"، أي أن مفرداتها تتشكل من مقاطع صوتية محددة، وما يميز هذه المقاطع هو قيامها على الصوائت ومنها الصوائت الطويلة أي أصوات المد، وبخاصة المقاطع

المنارة للاستشارات

الطويلة المفتوحة، فلابد لكل منها أن يشتمل على حركة طويلة أي صوت مدّيّ إلى جانب صوت صامت. ومثال هذا المقطع حرف الجر "في" ورمزه "ص ح ح"".[23]

وكذلك تقدم أصوات المدّ خدمة جليلة للغة العربية بفضل ورودها مزيدة في كثير من الكلمات والصيغ، فالزيادة في الصيغ تحصل باستخدام هذه الأصوات في الغالب لأداء جملة من المعاني، يقول سيبويه: "وأما الألف فلا تلحق رابعة فصاعدا إلا مزيدة، لأنها كثرت مزيدة، كما كثرت الهمزة... وهي أجدر أن تكون كذلك من الهمزة، لأنها تكثر ككثرتها أولا، وأنه ليس في الكلام حرف إلا وبعضها فيه أو بعض الياء والواو".[24] فالألف تشبه الهمزة في الشيوع وكثرة الدوران، إلا أن الهمزة بداية الكلام، وللألف درجه، وذلك لأن "الألف لا تزاد أوّلا لسكونها، إلا أن أوائل الكلم التي يُبتدأ بها لا تكون إلا متحركة، ولكنها تزاد وحدها ثانية في فاعِل ومع غيرها في ساباط وثالثة في كِتاب، ورابعة في نحو سَكْرى ومِعْزى ونحوهنّ، وخامسة في نحو حِلبلاب وحَنْبَطِى، وسادسة في قَبَعْثَري، وهي أجدر بالزيادة من الهمزة، لأنها تكثر ككثرتها ولا تكاد تخلو كلمة من زيادة بعضها فيها وهي الفتحة".[25]

الخاتمة

في آخر هذا البحث نخلص إلى مجموعة من النتائج، وهي

- أن أصوات المدّ كثيرة الشيوع والدوران في اللغة العربية.
- أن لأصوات المدّ في العربية قيمة لغوية عظيمة الشأن، إذ تؤدي وظائف لغوية في مختلف المستويات اللغوية، وفي المستوى الصرفي على وجه الخصوص.
- أن القيمة الصرفية للأصوات المدية بارزة، وظاهرة لا يمكن إنكارها، إذ تؤدي هذه الأصوات أدواراً لغوية أو بالأحرى وظائف صرفية متعددة ومهمة في آن واحد، تتمظهر في التغيرات الصرفية المختلفة لِبُنى اللغة العربية ومفرداتها، والتي تنشأ عنها صيغ صرفية وظواهر لغوية جدّ مهمة في هذه اللغة، ومنها المشتقات بمختلف أنواعها، كاسم الفاعل، وصيغة مبالغة اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، واسم التفضيل، والمصدر، والجموع بمختلف أنواعها وكذا الإعلال والمد والقصر، والتقطيع الصوتي (المقاطع الصوتية)، والتأنيث والتصغير والنسبة.

المنارة للاستشارات

الهوامش

1- ابن جني، سرّ صناعة الإعراب، تح: مصطفى السقا وآخرون، ج1، دار إحياء التراث القديم، ط1، مصر، 1374ه/1954م، ص19.
2- المصدر نفسه، ص20.
3- المصدر نفسه، ص ن.
4- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، القاهرة، د/ت، ص38.
5- ينظر: المصدر نفسه، ص 39.
6- ابن سينا، رسالة أسباب حدوث الحروف، تح: محمد حسّان الطيّان، ويحي مير علم، دار الفكر، ط1، دمشق، 1043ه/1983م، ص 84،85.
7- المصدر نفسه، ص ن.
8- ينظر: كمال بشر، علم الأصوات، دار غريب، د/ط، القاهرة، د/ت، ص 441.
9- ينظر: أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، د/ط، القاهرة، د/ت، ص 135.
10- محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت، د/ط، د/ت، ص 137.
11- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص32
12- المصدر نفسه، ص ن.
13- ينظر: المصدر نفسه، ص31.
14- أحمد كشك، من وظائف الصوت اللغوي، دار غريب، ط3، القاهرة، د/ت، ص27 (ينظر الهامش).
15- ينظر: محمد إسماعيل بصل، وصفوان سلوم، أثر الأصوات الصائتة في المستويين اللغويين (الصرفي والنحوي)، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية –سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد (31)، العدد (02)- اللاذقية- سوريا، 2009م.
16- ينظر: السيد يعقوب بكر، دراسات في فقه اللغة العربية، مكتبة لبنان، بيروت، 1969م، ص10، 11.
17- سيبويه، الكتاب، ج4، دار الكتب العلمية، د/ط، بيروت، 1420ه/199م، ص 461.
18- ينظر: مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، دار الأندلس الجديدة، ط1، مصر، 1428ه/2007م، ص 87، 89، 91، 92.
19- السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج2، القدس، ط1، 1430ه/2009م، ص 68.
20- ينظر: مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، ص281.
21- سيبويه، الكتاب، ج4، ص 507.
22- ينظر: محمد إسماعيل بصل، وصفوان سلوم، المرجع السابق، العدد (02).
23- حسام البهنساوي، علم الأصوات، مكتبة الثقافة الدينية، د/ط، القاهرة، د/ت، ص 148، 149، 150، 151.
24- سيبويه، الكتاب، ج4، ص 453.
25- أبو علي الفارسي، التكملة، ج2، تح: حسن شاذلي فرهود، ديوان المطبوعات الجامعية، د/ط، الجزائر، 1966م، ص234.

المنارة للاستشارات